التجربة التعلُّمية السابقة للطالب

يقدِّم الدكتور يوسف صيداني، أستاذ القيادة والأعمال في الجامعة الأميركية في بيروت، أفكاراً متبصّرة وعميقة بشأن عملية التعلُّم في الشرق الأوسط العربي، حيث يقول:

> حيث إن الطالب أُخضِع منذُ طفولته وبدء تلقيه التعليم المدرسي لأشخاصٍ ذوي سلطة قويّة، فإنّه سيكون أكثرَ راحةً ضمن مجموعةٍ لها زعيم أو قائد قوي في القمّة. وتجانس المجموعة يعني أنّ التماثل الذي تدرَّب على أن يتوقَّعه سيكون الأمر الأكثر احتمالاً. وبالرغم من قدراته الفكرية، فإنّه يكون في حالة شكٍّ بأي ابتكار أو تجديد، ويفضِّل الإبقاء على الأمور كما هي، سائراً وراء معرفةِ وتجربةِ أشخاصٍ متقدّمين عليه.[1]

يحدِّثنا الدكتور صيداني عن التأثير القوي لمرحلة التعليم في الطفولة، فيقول: "لهذا يصعب إدخال أي تغيير، لا في المدارس فقط، بل حتى في تعريف الطالب أو الطلاب على طرقٍ دراسيّة تعليمية جديدة وفاعلة."[2]

تثير التصريحات السابقة السؤال حول إمكانية نجاح مبادئ التعليم الخاصّة بالبالغين (والتي عالجناها سابقاً)، والتي تمّ وضعها وتطويرها في الغرب، في الشرق الأوسط العربي. فإن استخدمنا هذه المبادئ في بيئة مختلفة مع طلاب لديهم تجارب وخبرات مختلفة في مراحل الدراسة المدرسية، فهل سننجح في تطبيقها؟ أعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال هي "نعم". ولكنني أومن أيضاً أنّ علينا أن نجد طريقة لإنجاح استخدام هذه المبادئ. وأفكار الدكتور صيداني المستنارة

---

[1] Sidani, Yusuf & Thornberry, Jon. 2009. *The Current Arab Work Ethic: Antecedents, Implications, and Potential Remedies*. Journal of Business Ethics, 91:35-49.

[2] المرجع السابق، 42.

مهمة بالنسبة لنا: "الأمر المحتمل جداً هو أن يؤدّي استخدام هذه الطرق إلى تفكيرٍ نقديٍّ ومنطقيٍّ وحلٍّ للمشاكل والقضايا، وهي جوانب مهمة في عملية التعلُّم الحقيقي."[3]

ومن أجل معرفة وفهم إمكانية نقل هذه المبادئ والكيفية التي يمكن استخدامها بها، سنمتحن العوامل التي تحدِّد نجاحها. وتشمل هذه العواملي ما يلي:

١. السّياق التعلُّمي السابق للطالب: ينبغي أن يشمل هذا العائلة والثقافة والطرق غير الرسمية التي يحصل فيها التعلُّم.

٢. تأثير الثقافة على الطالب وعلى العملية التعليمية.

القضية الأولى التي سننظر إليها هي التجربة التعلُّمية السابقة للمتعلِّم والعوامل الثقافية الكامنة وراء هذه الممارسات. مع أن هذه العوامل تشمل تأثير العائلة والثقافة والطريق غير الرسمية التي تحصل بها عملية التعليم (القصص والأقوال المتداولة وغيرها)، فإننا سنركِّز على الطريقة التي بها تمّ تعليم الطالب في مراحل الدراسة المختلفة في المدرسة. سيساعدنا هذا الأمر في فهم ظرف وسياق المتعلِّم في مراحل الدراسة المدرسية المختلفة. ثمّة ممارسات إيجابية سنستفيد منها ونبني عليها، وممارسات سلبية سنحتاج إلى معالجتها.

يستنتج الدكتور ج. و. هيت (G. W. Hitt) من ملاحظاته في تعليم الفيزياء في الكويت والإمارات العربية المتّحدة أنّ عملية التعليم التي خاض فيها الطالب في المرحلة المدرسة (pedagogy) لها دور أكبر من الثقافة في إعاقة الطالب من الاستفادة من الممارسات الجديدة المُتّبعة في تعليم البالغين.[4] ولذا، فإن فهم الوضع الدراسي والتعلُّمي السابق للمتعلِّم ضروري عند استخدام مبادئ تعليم البالغين في ممارساتنا التّعليمية والتعلُّمية. يمكننا فهم الظروف

[3] المرجع السابق، 41.

[4] Hitt, G. W. 2014. *Secondary Implementation of Interactive engagement teaching techniques: Choices and Challenges in a Gulf Arab Context*. Physics Review Special Topics - Physical Education Research 10, no. 2; 020123-1-20.

التعلُّمية السابقة بالنظر إلى تجارب الطلاب الدراسية في مراحل الدراسة المختلفة في المدرسة في العالم العربي. ومع أن هذه هي الظروف الدراسية والتعلُّمية نفسها التي مرّ بها معظم طلابنا الذين نعلِّمهم وندرِّبهم، فثمّة فوارق بين الطلاب تعتمد على نوع المدرسة التي درسوا فيها. هذا يؤكِّد على أهمية فهم الظروف الدراسية السابقة لكل طالب. نبدأ بالسياق الدراسي التعلُّمي السابق باعتباره العامل المهم والحاسم في فهم كيفية إدخال التعلُّم التجريبي إلى عملية التعلُّم. وننتقل بعدَ ذلك إلى فهم العوامل الثقافية التي ساهمتْ وتساهم في تشكيل السياق التعلُّمي السابق. تساعد العوامل الثقافية في شرح السبب الذي لأجله التعليم في المدارس على ما هو عليه. من شأن هذا أن يعطي بصيرة للطلاب بشأن ما ينبغي أن يتوقَّعوه في الغرفة الصّفّية ومفهومهم لـ"التعلُّم" الحقيقي" أو "التعليم الجيّد". "تجارب المتعلِّم السابقة والسياق الذي فيه ينبغي أن يتم التعلُّم يؤثّران فيما يفضِّله المتعلِّم بشأن نهج الأسلوب الدراسي التعلُّمي."[5] وأخيراً، يرشِدنا هذا الأمر بشأن الدرجة التي يمكننا بها إدخال التغيير (التعليم التجريبي الجديد) بطريقة تكون مقبولةً للمتعلِّم.

يتمّ تحديد الظّرف الدّراسي والتعلُّمي السّابق ثقافياً

تشكِّل المعايير الثقافية السياق والوضع الدراسي لطلاب المراحل الدراسية المختلفة في المدرسة. وهذا ينطبق على كل ثقافة. وبالنسبة للعالم العربي، فإن معظم المتعلّمين البالغين في المنطقة تعلَّموا في سياق أنماط وأُطُر وأساليب ثقافية عربية في كل سنوات ومراحل دراستهم المدرسية. وقد عزّز أساتذة الجامعات هذه الأنماط والأُطُر في سنوات الدراسة الجامعية. وكما سنرى، فإن الأوضاع الدراسية الماضية عوامل قوية في تحديد التوقُّعات الدراسية عند المتعلِّمين البالغين.

[5] Egger, Roman, Gula, Igor & Walcher, Dominik. 2013. In Maurer, Christian. 201. *ISCONATOUR 2013: Tourism Research Perspective*. http://www.springer.com/gp/book/9783642540882

السياق الذي فيه درس وتعلَّم المتعلِّمون ونوعية التعليم الذي قُدِّم لهم يحدِّدان نظرتهم إلى عملية التعلُّم. وحين يسعى الطلّاب، وهم بالغون، لأن يتعلَّموا ولأن يصيروا معلّمين لآخرين، فإن خلفيتهم الثقافية في تعليم الصغار ستنعكس في الغرفة الصفّيّة. فالتجارب التعلُّمية السابقة تؤثّر بتوقُّعاتهم أو ما ستبدو عليه العملية الدّراسيّة التعلُّمية. "للسّياق الذي فيه يتعلَّم الأفراد ويعملون ويعيشون تأثير مهم على خلق وتعديل توقُّعات الفرد وعملية التعلُّم لديه، واستراتيجيته وأساليب إدارته. فينبغي أخذ الدِّين والأيدولوجية والأنماط الاجتماعية (مثل الأنماط السقراطية أو الكونفوشستية أو الإسلامية أو غيرها) في الاعتبار من أجل الوصول إلى فهم ناجح للأنماط والصور الثقافية وتطوُّرها."[6]

هذا ينطبق عليك بصفتك معلِّماً ومدرِّباً. فطريقتك الطبيعية في التعليم ستُظهِر الطريقة التي تعلَّمتَ بها. وينبغي أن تكون مدرِكاً لهذا الأمر. كما أن هذا ينطبق على الذين يستخدمون مبادئ تعليمية مُتّبعة في الغرب. فالذين يعملون هذا يميلون بصورةٍ طبيعية إلى اتّباع نهج التعليم الذي تعلَّموا به. سواء كُنّا من العالم العربي أو من أسيا أو الغرب، فإنّ على المُدرّبين منّا أن يكونوا واعين لا للظروف الدراسية التعلُّمية الخاصّة بالطالب فقط، بل وتلك الخاصّة بنا أيضاً.

الظرف التعلُّمي السّابق للمتعلِّم

سننظر إلى العوامل الثقافية التي تؤثّر بعملية التعلُّم في العالم العربي في الفصل التالي. لكن قبل أن نفعل هذا، سنصف العناصر التي تؤلِّف السّياق الدراسي التعلُّمي الذي مرّ به معظم المتعلّمين البالغين في العالم العربي. سننظر إلى الدور ذي الصلة الذي تلعبه القضايا والنواحي الثقافية في البيئة الدراسية التعلُّمية الخاصّة بالمتعلِّم العربي. والحقيقة هي أنّ عملية التعلُّم تتمّ بطرق مختلفة في الثقافات المختلفة.[7] هناك عمليات فكرية مختلفة، يمكن

[6] Valiente, Caroline. 2008. *Are Students Using the 'Wrong' Style of Learning?*. Active Learning in Higher Education, 9 (1) 73-91.

[7] انظر المقالات التالية:

- Nisbett, Richard. 2001. *Culture and Systems of Thought: Holistic Versus Analytic Cognition*. Psychological Review, 108, no. 2.

التحقُّق منها، في مناطق مختلفة في العالم، تؤثِّر بالبنية التي تتّخذها المعلومات ويُنظَر بها إليها بصورة منطقية. بعض النّاس متعلِّمون متسلسلون فيتعلّمون بصورة تتابعية، وآخرون تدرَّبوا بطريقةٍ جعلتهم متدرِّبين شموليين.[8] وكما يقول هوفستيد (Hofstede): "تطوُّرنا الفكري يتحدَّد بمتطلَّبات البيئة التي ننشأ فيها ... القدرات الفكرية متجذِّرة في الأنماط والأساليب الشاملة السائدة في المجتمع."[9] وهكذا، فإنّ السياقات الدراسية والتعلُّمية السابقة تتحدَّد بالثّقافة السائدة.

"تحليل عملية التعلُّم في ثقافات مختلفة تؤكِّد أن تجربة المتعلِّم الدراسية التعلُّمية السابقة والسياق الذي حصلت فيه عملية التعلُّم يؤثِّران بصورة واضحة في تنمية وتطوير الأنماط والأساليب المُفضَّلة لديهم بحيث تصير سلوكاً تمّ بناؤه عبر فترة طويلة، وفي الاستراتيجية التي يختارونها لإدارة عملية الدراسة والتعلُّم باعتبارها استجابةً تكتيكية."[10]

فهم تأثير عملية الدراسة والتعلُّم السابقة يساعدنا في معالجة نواحٍ سلبية وبناء نواحٍ إيجابية.

1. **تأثير الإسلام** – للإسلام تأثير عميق على كيفية فهم التعليم وممارسته في الشرق الأوسط. فالنمط الإسلامي المُتّبع في تعليم الأطفال في المدارس مبني على نمط الطريقة التي علَّم بها محمّد أتباعه.[11] كانت المدارس الإسلامية

- Enns, Marlene. 2005. *Now I know in Part: Holistic and Analytic Reasoning and their Contribution to Fuller Knowing in Theological Education*. Evangelical Review of Theology, Vol. 29 Issue 3, 251-269.
- Valiente, Caroline. 2008. *Are Students Using the 'Wrong' Style of Learning?*. Active Learning in Higher Education, 9 (1) 73-91.

[8] Tenant, Timothy. 2009. *Theology in the Context of World Christianity*. Grand Rapids, Michigan: Zondervan.
[9] Hofstede, Geert. 1986. *Cultural Differences in Teaching and Learning*. International Journal of Intercultural Relations. Vol. 10, Issue 3, 301-320.
[10] Valiente, Caroline. 2008. *Are Students Using the 'Wrong' Style of Learning?*. Active Learning in Higher Education, 9 (1) 73-91.
[11] Boyle Helen. 2006. *Memorization and Learning in Islamic Schools*. Comparative Education Review, 50, no. 3. 478-495.

هي الوسيلة الأساسية للتعليم قبل الفترة الاستعمارية. "بالنسبة للمجتمعات الإسلامية، ثمّة فصل واضح بين دور المدرسة في التعليم الديني ودور المدرسة في التطوُّر الحديث."[12] ويتواجد نوعا التعليم في كل أرجاء المنطقة.

2. **الحفظ عن ظهر قلب في المدارس** – صار الحفظ عن ظهر قلب[13] الوسيلة والطريقة الرئيسية المُتّبعة في التعليم في كلّ أرجاء المنطقة.[14] للحفظ والتذكُّر دور مهم في مجمَل عملية التعلُّم، فلا يمكن استخدام المعلومات إن لم تكن معروفة. الحفظ كنمط تعليمي تعلّمي ليس فقط عاجزاً عن إحداث تغييرٍ حقيقي في الشخص، بل إن لاستخدامه كالنمط التعلّمي الرئيسي في مدارس نتائج وتأثير أيضاً.

3. **الامتحان الوطني** – "تتآمر قوى كثيرة لتقويض قيمة التعليم العالي ولتحويل التعلُّم إلى عملية حفظ. ارتبط التعليم بالأسلوب الحفظ مع تشديد النظام التعليمي الاستعماري على الامتحانات. وقد عزّزت السياسات البريطانية، التي فرضت امتحاناً وطنياً، هذا الاتّجاه."[15]

4. **التعلُّم الاستقبالي المتمحور حول المعلِّم** – للحفظ، كالوسيلة الرئيسية في التعلُّم، تأثير سلبي على عملية التعلُّم. أكبر أخطار الحفظ هو أنّه يخلق نوعاً من الاستقبال والخمول في عملية التعلُّم. وهذا يظهر في استخدام الحفظ من أجل النجاح في امتحان. هذا يعوق ويعطِّل فكرة كون التعلُّم لأجل النّمو. لا يكون هدف التعلُّم إحداث تغيير وتحقيق نموّ، بل يتمحور حول جمع وتكويم المعلومات واسترجاعها بالطريقة التي يطلبها المُدرِّس. يخلق هذا وضعاً يصير فيه المعلِّم معطياً للإجابات والطالب متلقّياً خاملاً لها. المعلِّمون هم الذين يملكون الإجابات التي يحتاج الطلاب إلى معرفتها. يكون التعلُّم عمليةَ تلقّي سلبية – طريقاً باتّجاه واحد لنقل المعلومات من المعلِّم إلى الطالب. وحين يكون

[12] Akkari, Abdeljalil. *Education in the Middle East and North Africa: The Current Situation and Future Challenges*. International Education Journal, Vol. 5, No. 2, 144-153, 2004.
[13] Hitt, G. W. 2014. *Secondary Implementation of Interactive Engagement Teaching Techniques: Choices and Challenges in a Gulf Arab Context*. Physics Review Special Topics - Physical Education Research 10, no. 2:020123-1-20.
[14] Korn/ Ferry Institute. 2011. *Business Leadership in the Arab World*. Dubai, UAE.
[15] Richards, Alan. 1992. *Higher Education in Egypt*. World Bank Policy Research Working Paper. Washington, DC.

المعلِّم هو النقطة المركزية الوحيدة في الغرفة الصفية، فلا يكون هناك إلا فرصة بسيطة، هذا إن كانت هناك فرصة، لتطبيق ما يتم تعليمه على أوضاعٍ مختلفة. تكون الغرفة الصّفّيّة متمحورة حول المعلِّم بصورة كبيرة.